قصة قصيرة

الهدايا الخضراء الغامضة

احمد البادري

تنكمش المدينة على نفسها كالبيضة يخترقها النهر بوداعة حاملا على ضفتيه تيجانا من النخل الصامت الموحش . ويمتد شارعه الطويل المغبر كحيوان نائم . كان خاليا وقد أقفرت مقاهيه ، وكان ثمة هواء رطب وثقيل يدوّم بين الاعشاب الشوكية المتشابكة كمؤامرة . التمع الماء على الشاطىء ، وكان ثمة مناجاة خفية معقودة بين الماء والاعشاب توحي بأن ثمة شيئا ما مفقودا في تلك العتمة . كان الفراغ سيد المكان ، وكان يتسع ويتسع حتى ظلل كل الفجوات المعتمة بين الاعشاب وتمدد بين الشقوق اليابسة في وجه أرض الشاطىء .

كانت الفتاة الجالسة على مصطبة مع أختها الصغيرة تراقب هذه الشقوق وتتابعها متفرسة فيها ، وكانت تجد فيها ايقاعا متناغما وحيّا مع ايقاع حياتها ، فكانت تتابع شقا متعرجا حتى ينقطع ويبدأ شق آخر أكثر اتساعا . بدت الشقوق ضيقة ما تلبث أن تتسع وتتلاقى وتنتشر في كل الاتجاهات بعفوية أخاذة كايقاعات على طبل يوقعها طفل غاضب . انهمكت أختها الصغيرة بتنويم لعبة صغيرة تطبق اجفانها عندما تنطرح على ظهرها ، وما تلبث أن ترفعها بشكل عمودي فتفتح عينيها الجامدتين ، حينئذ تنشقّ ابتسامة جذلى في وجه الطفلة وتهز أختها محاولة أن تجعلها تنظر اليها . كانت الفتاة مستغرقة بتأمل تلك الشقوق الجافة ، وما لبثت أن رفعت عينيها الى السماء ، كان ثمة غيمة سوداء تنعقد فوق النهر : كبيرة وغامضة ومهددة . تأوهت الفتاة وهي تراقب تلك الغيمة ، فكرّت : « انه مساء آخر مثل الاماسي الاخرى » .

عبر الشارع ، في العتمة المجاورة ، كان ثمة نافذة مفتوحة ومضاءة ، وقد قبع وراءها شاب نحيل يراقب الفتاة بانتباه شديد ، اصطفقت درفتا النافذة ، وغاص الضوء كفريق عاجز واختفى في الغرفة . انتدبت العتمة . فاخرج الشاب سيكارة واشعلها . كشف ضوء عود الثقاب عن وجهه الشاحب . وكان يبدو رصينا وهادئا . نفث حزمة من الدخان . انعقدت كغيمة أمام وجهه ثم تعالت في العتمة واخفت . اخذ يربت على ساقه بهدوء وانسلّ خارجا من الغرفة وخطا ليعبر الشارع . اتجه نحو المصطبة التي تجلس عليها الفتاة وأختها . وعندما اقترب منها تنحنح بخفوت . شعت في وجه الفتاة ومضة انتباه وأطلّ من أعماق عنبها خوف خفي .

قال : مساء الخير . تلعثمت الفتاة وارتجفت قليلا ومدت ذراعيها واحتضنت أختها المنهمكة بمداعبة لعبتها . وردت التحية بهمهمة غامضة .

كان ثمة شيء ما مهدد بوشك أن ينقضّ عليهما بين لحظة وأخرى . ولم تكن تعرف ما سيكون . انبأها تحسّ بشك غريب من الغرباء وتحمل لهم في أعماقها سوء نية غامضة وان كان وجه ذلك الشاب لا يبعث على الريبة بل انه يضفي طمأنينة عميقة على الاشياء التي ينظر اليها . كان في نظرته مشاركة حارة دون سابق معرفة ، وفيها ذلك الصفاء الذي ينفّم فوضى الاشياء . كانت نظرته كيد مدربة تنظم مائدة سيئة الترتيب . وقف منتصبا كسؤال ، اختلج جسد الفتاة وسرت رعشة في ذراعيها اللتين تحتضنان أختها ، حاولت أن تتماسك فازدردت ريقها وانتصبت في جلستها . قال الشاب : « هل تسمحين لي بالجلوس ؟ » وبدون أن ينتظر الجواب جلس الى جانبها بهدوء وبتوجس ، كأنه يجلس على صفيحة ساخنة . نهضت الفتاة فجأة وجلست على الطرف الآخر من المصطبة ووضعت أختها الصغيرة فيما بينهما ، وكانت الصغيرة هذه تتطلع اليه مبتسمة وهي ترفع وتخفض لعبتها حيث تغلق وتفتح عينيها مما بعث

بها جذلا خفيا . أشارت الى لعبتها وهي تغمض عينيها : « أنظر .. هي نائمة .. لا تتكلم حتى لا توقظها » . ورفعت اصبعها الى فمها الصغير : اس .. اس ..

ابتسم الشاب ورفع يديه قائلا : « حسن .. لن أتكلم ما دامت نائمة ، ولكن ما اسمها ؟ » . أجابت الطفلة بخفوت : « سيسبان » .

حكّ الشاب رأسه بيد مختلجة وندت منه آهة تعجب قصيرة : « يا له من اسم غريب ! ولماذا سيسبان ؟ »

ردت الطفلة دون أن تقدم تفسيرا ، وكان ردها قاطعا : هكذا .

همهم الشاب وصمت وهو يتطلع الى اللعبة المغلقة العينين ، ومد يده ليداعب شعرها الذهبي القصير ، الا ان الطفلة أوقفت يده ودفعتها بعنف قائلة : « كلا .. كلا .. لا توقظها .. هي تحلم الآن » .

قال الشاب : « وبم تحلم يا عزيزتي ؟ » .

ـ « تحلم بالجنة » .

ومض استغراب أبيض في عينيه ، ونبت سؤال على شفتيه ، ولكنه قطعه على الفور وفكر : « ان هذه الطفلة لا ترد بأجوبة مقنعة ولا فائدة من السؤال » .

كان يشعر بخجل خفيف بعد أن يستمع الى الطفلة . ثم رفعت اصبعها مرة أخرى : « اس .. اس . لا تتكلم ! » .

أخرج سيجارة وأشعلها بأصابع مرتجفة ، وكان ينظر الى الغيمة المتدلية على النهر ، وكان يتخيلها كأشلاء انسان . كانت مقطعة داكنة في بعض أركانها ، تحيط بها زرقة شفافة وتبدو غامضة كالموت . التفت الى الفتاة وقال هامسا :

ـ « ما اسمك ؟ » .

أجابت الفتاة بصوت خافت : « يبدو انك مولع بالاسماء » .

قال الشاب : « نعم . الى حد ما . انها تجعل الانسان أليفا وترفع حواجز ثقيلة بين انسانين في أوضاع متشابهة . انها تخلق تفاهما سريا فيما بينهما . اسمي سعدي . حسن ، ما اسمك ؟ » .

ردت الفتاة : « وهل ذلك ضروري ؟ »

قال : « نعم » .

قالت : « اسمي حياة » .

تنهد الشاب بغموض وكأنه عثر على كنز ثمين ، ثم انشق فمه بابتسامة عريضة وقال : « ها يمكننا أن نتفاهم الآن . هم .. هم .. يبدو اني قد رأيتك في مكان ما ، وجهك أليف مثل وجه أخت » .

قالت حياة : « ربما . أراك من نافذة بيتنا كل يوم تقريبا . أنت تمرّ علينا صباحا وأراك مترنحا في آخر الليل » .

قهقه الشاب بحرج ، وقال : « حقا » .

ثم استأنفت : « ولكن ما تعمل ؟ » .

قال متضجرا : « أنا موظف في دائرة حكومية ، وعملي هو أن أؤشر على الاوراق : الى السيد عدنان رجاء ، الى السيد كامل رجاء ، وما الى ذلك . عمل رتيب ويزداد كرهي له يوما بعد يوم ، ولكن أعمل به من أجل الخبز كما تعلمين وهكذا يفرغني عملي هذا من كل حلم أشتهي » .

تساءلت حياة : « وبماذا تحلم ؟ » .

أجاب : « كنت أحلم أن أكون نحاتا . كنت أنحت الخيول والكلاب والاواني في طفولتي ، وعندما كبرت أردت أن أنحت أشياء أخرى ، فالانسان يفرح عندما يرى أشياء من صنع يديه . فهو يشعر بأن حياته لا تمضي بلا فائدة ، هي علامات على طريقه ، ولكن عملي قتلَ هذه العلامات وأصبحت كمؤشر ميكانيكي ينحني على الاوراق ، حتى أصبحت أشعر بالهرم والشيخوخة ، ولكن مع ذلك .. قد لا يطول الامر وأكون انسانا آخر . ولكن هل أنت طالبة أم ... ؟ » .

أجابت حياة : « كنت طالبة . تركت الدراسة لأنصرف لشؤون البيت . الاعمال البيتية مدمرة كما تعلم . أقبع في المطبخ من الصباح الى الظهر ، تملأني رائحة الطعام »

توقفت هنيهة لتسترد أنفاسها ، ثم استأنفت قائلة بلهجة اعتراف :

ـ « ماتت أمي وليس لي سوى أبي .. يعمل حارسا في محطة القطار . أقضي الليل مع أختي الصغيرة هذه . وأخي يعمل بالبناء ، يرجع متعبا عند الغروب فيتناول عشاءه ويرمي بنفسه في الفراش وينام كالميت ليستيقظ في الفجر » .

ثم صمتت وانفجرت بغتة وهي تردد :

ـ « حياة مدمرة كما ترى .. أفكر فيها .. أفكر بمستقبلي .. ماذا سيكون ؟.. متى يزول هذا الظلام ؟ لست أدري ! أردت أن أرمي بنفسي في النهر قبل أن تأتي ، ولكن فكرت بأختي الصغيرة فعدلت عن هذه الفكرة السوداء ، وأيقنت ان موتي ليس خسارة لي وحدي وانما للآخرين أيضا . قد تكون أعماق النهر واسعة وأفواه الاسماك التي تنهشني أرحم لي من هذه الحياة » .

تأوه الشاب وصمت وهو ينفث الدخان وقال :

ـ « يا لها من حياة .. يا لها من حياة » .

تحركت الغيمة قليلا واخترقت تلك الزرقة الشفافة . كان النهر يجري بهدوء وتدوي في أعماقه أنات خافتة كأنها صدى آهات هذين الكائنين الغائصين في زرقة الهم . مدّ الشاب يدا ثابتة نحو الفتاة ، فانسحبت بحياء وتماسكت قليلا وتطامنت . أحست بحرارة يده المنبسطة على يدها المرتعشة . وكان ثمة هدابا خضراء غامضة تنسلّ في تلك الحرارة المتميزة ،

تسري الى داخلها المشوش وتحلق فيه كطيور أليفة ، ثم تحطّ على أغصان روحها المتشابكة المتنافرة وتغني بجذل . خيل اليها انها تسمع تلك الاغاني السرية . كان فيها نداء عميق لا تعرف كنهه ، واستسلمت لها ؛ سرى فيها خدر شفاف كالطرب ؛ وامتطت تلك الموجة الصادحة المتموجة بعنف . ثم تطلعت الى النخل البعيد ولمحته أجرد وطويلا ومنتصبا أمام النهر وفكرت : « أنا مثل ذلك النخل » . شدت شفتيها بحركة اصرار واضحة وقالت في نفسها : « سأصمد » .

قال الشاب : « لا يعمل الانسان ما يشتهي ولكنه يتعلق بأحلامه . اف . همّ مدمر وقد ينتهي .. ربما ينتهي .. لست متأكدا . حسن . ما دمنا أحياء نستطيع أن نجعل من حياتنا جوهرة ثمينة . هل تكفي الحياة ؟ ربما ... و ... و ... » .

التقت عيناهما فجأة ، وللمرة الاولى رأى في عينيها ذلك الحزن الثابت المتأصل .. يحسّه كما يحسّ بلسعة النار . أرخى رأسه على كتفه الايمن . كانا مستغرقين في بحيرة شفافة من أحلام عصية الخيال .

وفجأة صرخت الطفلة : « هيّا .. استيقظت سيسبان » .

كان في وجهها امتعاض واضح وفيه اتهام خفي . نظر احدهما للآخر . كان في نظرتيهما مشاركة عميقة في اثم موهوم . قال الشاب : « هل استيقظت حقا ؟ » .

أجابت الطفلة : « نعم .. ايقظتماها بثرثرتكما » .

تأففت وقالت : « من ينيمها لي الآن؟ يا للمصيبة ! »

ابتسم الشاب : « هاتي . سأنيمها لك » .

تشبثت الطفلة بلعبتها وهي تصرخ : « كلا .. كلا . أنت لا تعرف كيف تنيمها . هي تخاف من الغرباء ولا يغمض جفنها معهم » .

التفت الى الفتاة ، وهزّ يده حائرا ؛ فأشارت له أن يتركها ، فأخذت الطفلة تربت على صدر اللعبة وتدندن بهمهمات قصيرة . تأوهت الفتاة وقالت في نفسها : « من ينيّم قلبي وانا أغرق في بحر همي ؟ » .

قال الشاب : « ربما سأراك في وقت آخر . أنظري الى النهر ؛ هذا النهر العظيم ، يجري مقتحما الصخور والاعشاب والحفر .. انه يجري رغم كل شيء » .

نهض من مكانه متثاقلا واوما بيده لها وقال : « اصغي الى درس هذا النهر العظيم .. تعلمت منه أشياء كثيرة . طابت ليلتك ؛ مع السلامة » .

ثم مضى يخطو متمهلا في الشارع . اخترقت الغيمة السماء وأصبحت زرقاء ورمادية . هبّ هواء خريفي رطب من ضفة النهر ، لامس وجهها فارتعشت قليلا وداخلها حزن شفاف ، فاحتضنت أختها الصغيرة بحرارة وأخذت تحدق في النهر .

صدر حديثا

روايات وقصص

د. سهيل ادريس

في طبعة جديدة :

الحي اللاتيني

(الطبعة السابعة)

الخندق الغميق

(الطبعة الثالثة)

اصابعنا التي تحترق

(الطبعة الثالثة)

قصص سهيل ادريس

في جزئين :

اقاصيص اولى

اقاصيص ثانية

منشورات دار الآداب